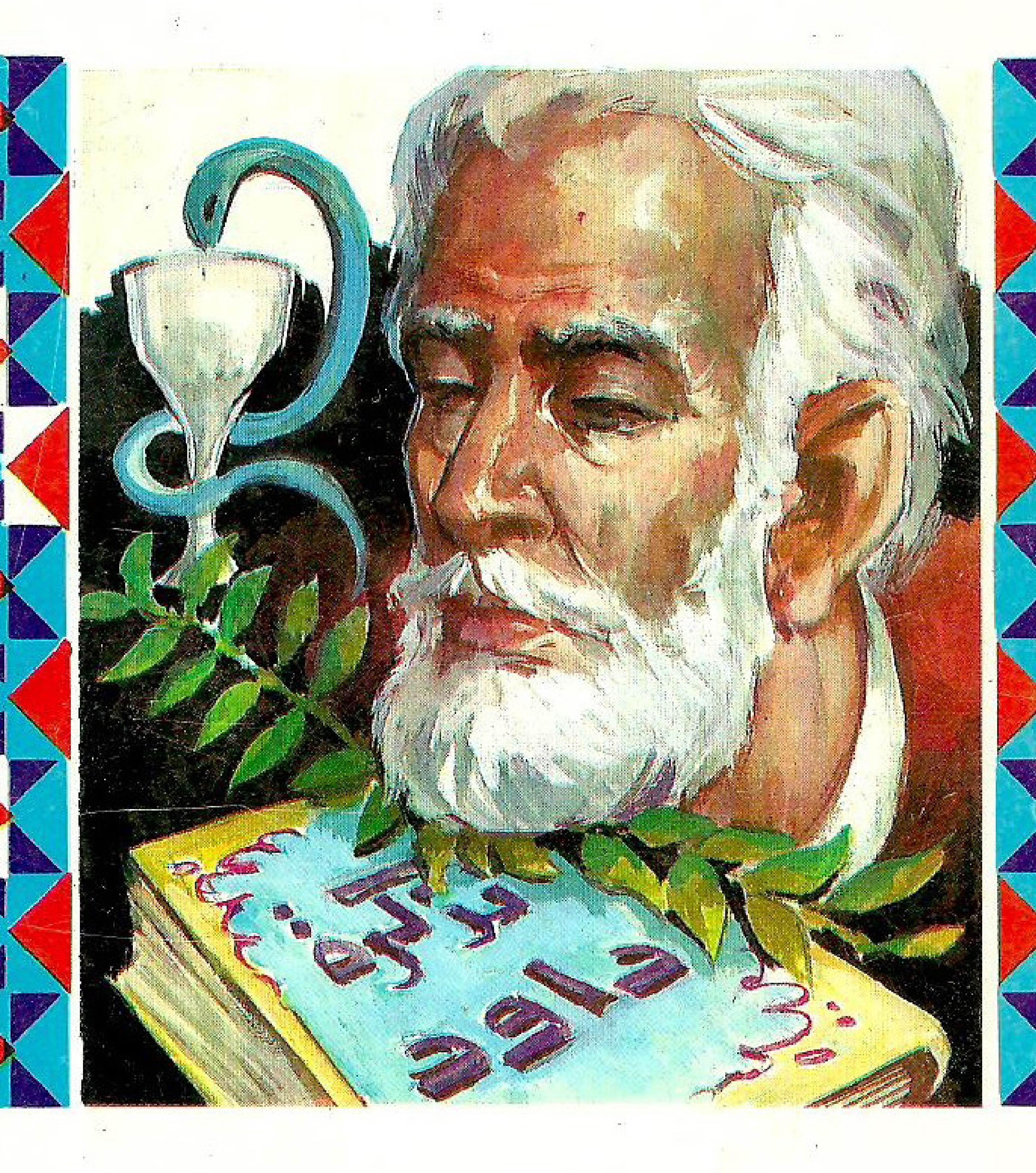
علماء العرب



الأنطاكى

أبو الصيدلة



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام
مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء
العرب

(٢٠)

الأنطاكي

أبو الصيدلة



تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٥٧٤٧٠٨٣ - تلكس ٩٢٠٠٢ يو ان



نور القلب

كان « دَاوُدُ » الصّبى يسير فى حدائِق « أنطاكية » (شمال غربى سوريا) ، مع طَبِيبِهِ الفارسِىّ « بَهزَادَ » ، بعد أن نجحَ الطبيبُ فى شفائِه من مرضِه الطوِيل .

وكان « داوُدُ » كفيفَ البصر ، فقد وُلِدَ لا يَرَى من الدّنْيَا شيئاً . وأخذ الطبيبُ يصِفُ لداوُدَ بالكلماتِ ما لا يَراه . ودَاوُد يُنصِتُ لطَبيبه ، دونَ أن يلتفتَ إليه ، ويسمَع وصفه فى سُكون ، دون أنْ يبدُوَ عليْه أىُّ انفعالٍ . وحين انتهى الطبيبُ من وصفِه لما يراه ، قالَ له « داوُدُ » :

– أَصْواتُ الطيورِ ، والمياهُ المنحدِرة (النازلة) فِى سَفْحِ الجبَلِ ، ونسيمُ الهواءِ بينَ التلالِ والهِضَابِ ، تُحدِّثُنى بكلِّ هذا الوصْفِ يا سيِّدِى ، وكأننى أراه بعيْنَيْنِ مُبْصِرَتين .

ونظر إليه « داوُدُ » بعيْنَيْنِ واسِعتَيْنِ ، سَاكِنَتَى السَّوَادِ ، وكأنّهما تُبْصِرَان ، ثُمّ قَال :

– لكِنْ ، كمْ تمنيتُ يا سيِّدى أَنْ أَرَى هذِه الألوانَ ، التى ذكرتَها لِى : الأحْمَرُ ، والأصفرُ ، والأزرقُ ، والأخضرُ ، والأبيضُ ، والأسودُ ، وما بينَها من درجاتِ الألوانِ ، ولَوْ للحظةٍ واحدَةٍ ، تبقَى فى ذاكرَتِى إلى الأبد .

وكادَ الطبيبُ « بهزادُ » أن يُعبِّرَ عن تأثره وانفعالِه بالبُكاءِ ، رِثَاءً لحالِ « داوُدَ » ، وإشفاقاً عليه ، لكنهُ فوجِئَ بداوُدَ يبتسِمُ ، ثم يضْحَكُ ، ويشدُّ بيدِه على يدِه ، قائِلاً :

– لا تُشْفِقْ علىّ يا سيِّدِى ، فمعِى رحْمَةُ اللهِ بى . لقد منَحَنِى اللهُ عَقْلا ، أرجُو أن يكُونَ راجِحاً ، وسمْعاً قوِيًّا ، يُعَوِّضُنِى ، مع عَقْلِى ، عن نِعْمَةِ البَصَر .

عنَدئِذٍ قبلّ الطبيبُ « بَهْزَادُ » دَاوُدَ ، فى جَبِينِهِ ، قائِلاً له :

– تذكّرْ دائِماً يا دَاوُدُ ما قلته لِىَ الآنَ . فذلِك هو الإِيمانُ ، والإِيمانُ باللهِ ، وبالحَيَاةِ ، يعصِمُك (يحفَظُك) يا بُنَىّ ، من كُلِّ ضَعْفٍ ، أو حُزْنٍ ، أو يَأْسٍ .

وعادَ « داوُدُ » و « بهزَادُ » يسيرَان معا ، ويدُ أَحَدِهما فى يدِ الآخرِ . وكان « بَهْزَادُ » يوجِّه « داوُدَ » فى سَيرِهما ، بضَغْطَاتٍ خفِيفَةٍ من يدِه ، يُمْنَةً ويُسْرَةً ، وأَعْلَى وأَسْفَلَ ، وهُما ينزِلان منْحَدَراً ، أو يَصْعَدَانِ مُرتَفعاً . و « دَاوُدُ » يَسْتَجيبُ لِضَغْطَةِ يَدِ « بَهْزَادَ » فى يُسْرٍ (سهولة) . وعجِبَ « بَهْزَادُ » لأنّ « داوُدَ » فِى سَيْره معَه ، يسيرُ منتصِبَ القامَةِ ، مَشْدُودَ الرّقَبةِ ، مَرفُوعَ الرأْسِ ، لا يميلُ رأسَه يُمْنَةً أو يُسْرَةً ، فى قلَقٍ متوتِّرٍ ، مثلَ أكثرِ من فقدَ البَصَر . وهَمَس « بَهْزَادُ » لنفْسِه : « إنّه يرَى بنورِ القَلْب » .

سأعيش على ذاكرتى

اجْتازَ « بَهْزادُ » و « دَاوُدُ » حدائِقَ « أنطاكية » الشرقيّة ، وتوغّلا معاً فى الجبلِ المُجاورِ لأنْطاكْيَة ، صاعِدَيْن إلى القِلاعِ الرّومانيّةِ الأثريّةِ الضّخْمَةِ ، فَوْقَ قِممِ الجبل ، وبين ذُراه (قِممه) المتدرِّجةِ الارتفاعِ .

وراحَ الطبيبُ يحدّث « دَاوُدَ » عن تِلْكَ القِلاع ، وكيْفَ أنّها تُشكّل قَوْساً واسِعاً ، يُحيطُ بأنْطاكيَةَ ، ويحكى لَهُ الحِكَاياتِ عن أسْوَار « أنطاكيَةَ » الهائِلَةِ المحصّنة ، المُمتدّة فوْقَ الجَبَل ، وبين القِلاع ، مسافةَ ستّةَ عشَرَ مِيلاً ، وعن الأَبْراجِ الدِّفاعيّةِ فى الأسْوارِ والقِلاع . ثم قال له :

– بيْنَ كُلِّ بُرْجٍ وآخَرَ ، يا دَاوُدُ ، سبعُون خُطْوَةً بالتّمام .

فضحِكَ « داوُدُ » وقال :

– عرفتُ ذلِكَ بنفْسِى يا سيِّدِى ، فقد أحصَيْتُ عدَدَ خطوَاتِى ، بين كل بُرْج وبُرْجٍ ، تحدّثْنى عنه .

فقالَ له « بَهْزَادُ » بدهْشَةٍ :

– هل تعُدّ خطواتِكَ فِى السيْرِ يا دَاوُدُ ؟



فقال لهُ « دَاوُدُ » :

– نعمْ يا سيّدى ، وأحْسِبُ عددَها كلّما انعطفْتُ يُمنةً أو يُسْرةً ، وكُلّما انحدَرْتُ أو صَعَدْت ، فإنِّى أُحِبُ أنْ آلَف (اعتاد) الأَمَاكِنَ ، وكأنّها بَيْتِى ، حتّى إذَا ما سِرْتُ فيهَا وحْدِى ، لم أفقُدْ طريقِى ، وأضِلَّ فى سيْرِى ، أو أَظُنَّ أنّنِى أصْعَدُ ، عَلَى حِين أنّنِى أنْحدِرُ ، أو أتوهم أنّنِى أنْحدِرُ ، على حِين أنّنِى أصْعَدُ ، فأتعثّرَ فِى سَيْرِى ، أو أسْقُطَ على وَجْهِى . أريدُ أنْ أتذكّرَ كلّ طرِيقٍ جيّداً . فعَلَى ذاكِرتِى سأعيشُ بقيّةَ عُمرِى .

فقالَ له « بَهْزَادُ » بإعجاب :

– أَنَارَ اللهُ لَكَ بصيرتَكَ يا دَاوُدُ . وأَحْسِبُ أنّكَ ستكونُ أيضاً ، بحاجَةٍ إلى عصاً ، تَتوكّأُ (تستند) علَيْها ، وتتحسّسُ بها طريقَكَ ، حين تسيرُ وحيداً بلا رفِيق .

الحوارِىُّ حبيب النجار

توقّف « بَهزادُ » و « دَاوُدُ » ، أمَامَ قَلْعةٍ شاهِقـةٍ (عالية) . وقال له « بَهْزَادُ » :

– هَذِه القَلْعَةُ الضخْمةُ بنَاها الإمبرَاطُور البيزَنطِىّ « نقْفُور فُوكاس » وقد جعَلها الظاهِرُ « بِيبَرْسُ » أنْقَاضاً ، والسّبَبُ هُو ..

فِقاطَعَهُ « داوُدُ » قائلاً :

– السّبَبُ تحصّنُ الصّلِيبيينَ بها ، أثْنَاءَ احتلالِهم لِدِيار الشّام . أعِرفُ ذلِكَ يا سيدى . حكاهُ لِى أبِى .

فضَحِك الطبيبُ وقَالَ له :

– وما الّذِى تعرفهُ أيضاً يا دَاوُدُ ؟

فَقَال له « دَاوُد » :

– بيْنَ أنْقَاضِ هذِه القلعة ، يُوجَدُ قَبْرُ الحَوارِىِّ « حَبِيبُ النَّجارُ » الّذِى مات شَهِيدا .

فَقَالَ لهُ « بَهْزادُ » :

– فاعْلَم يا دَاوُدُ أَنّ حبِيباً هذا ، كانَ اسمُه « سِيليبوس » وأَنّه كانَ أَوّلَ منْ آمَنَ بعِيسَى بنِ مريمَ ، من أهْلِ « أنطاكيَةَ » ، وأَنّ المُسْلِمين يُسمّونُه « حَبِيبُ النّجّارُ » . ويَزُورُون قبرَه إلَى اليَوْمِ ، مِثْلَما يزُورُه المِسِيحيّون .

وانحدَرَ الاثنانِ : « داوُدُ » و « بَهزادُ » ، مارَّيْن فى نُزُولِهما من الجبل ، بأهمِّ آثار « أنطاكية » ، حتى بلَغا « نَهْر العَاصِى » ، فَعَبَرا فوقه قناطِرَ مُعلّقةً ، لا تزالُ أطلالُها ، وبعْضُ آثارِها ، باقِيةً إلَى اليومِ .

مدينة الصناعات

كانت « أنْطَاكْيَةُ » آنذاك ، أكبَرَ مركزٍ للتجارَةِ بينِ الشرْقِ والغربِ . فعندَها كانتْ تلتقِى الطرُقُ المَوصِّلةُ بين النهرِ والبحْرِ ، بالطّرقِ البَرِّيةِ التى تؤدِّى من الشّام إلى آسْيا الصغرى (تركيا الآن) .

وكانَتْ « أنطاكيةُ » مركزاً من مراكِزِ صناعاتِ : الحريرِ ، والصّابُون ، ومزْرَعَةً من مزارِعِ : القمحِ ، والزيتُونِ . وكانتْ نواحِيها هُنَا وهناك ، فى الجبَلِ ، مِثْلَمَا فِى الوَادِى ، شاهِدَةً على كثيرٍ من الزّلَازِلِ ، التى تعرّضَتْ لهَا « أنطاكْيَة » عبْرَ القرون ، وبرغْمِ آثارِ الزّلَازِل ظلّت هذه المدِينَةُ بِسَاطاً من الخُضْرَةِ ، رائعَ الجَمال ، بجانِبِ جبالِ « كَازْيُوس » العارِيَةِ الجَرْدَاءِ ، وأشهَرُها جبلُ « سيليبوس » المعروفُ بجبلِ « حَبِيبِ النَّجّار » .

نهـر الأسمـاك

دخَل « داوُد » مع طبيبِه الفارسى « بهزَادَ » إلى بيتِ أبيه « عُمَرَ الأَنْطَاكِى » ، مُختار (عمدة) قريةِ « حبيب النجار » وكانتْ قريةً قريبةً من « أنطاكية » . وكانَ أبُوه هو أغْنَى أغنيائها ، فلَهُ فى القَرْيةِ ، وفى « أنطاكْيَةَ » مَتَاجِرَ وعَقَارَاتٍ ، ولهُ حولَ القريةِ مزارِعُ شاسِعةٌ ، مزروعةً بالقَمْحِ والزّيْتُونِ .

والْتَامَ شَمْلُ الأُسْرَةِ ، معَ « بَهْزَادَ » ، حولَ مائدةِ الطّعَامِ . وكانتْ مائدةً حافِلَةً بالأسْماكِ : المشوِيّة ، والمقْلِيّةِ ، والمسْلُوقةِ ، يتوسّطُها طَبَقٌ واسِعٌ ، به أسْماك ثَعَابين الماءِ ، التى يُحِبُّها « داوُدُ » ، ويُفضّلُها على كافّةِ الأسْماكِ ، فَلا عِظَامَ تُذْكَرُ بهَا ، ولا أشْوَاكَ . وضحِكَ أبُوه ، وهو يُقدّمُ له مِلْعَقَةً وشَوْكَةً خَشَبّيتَين ، كانتْ تشتهِرُ بصُنْعِهما سواحِلُ الشّام ، وقال :

— من حُسْنِ حظِّكَ ، يا دَاوُد ، أن نَهْرَ العَاصِى مَلِيءٌ عَلى الدّوَامِ بثعابين الماءِ .

وحِينَ انتهَى الكلُّ من الطعام ، قدّم لهم خدمُ الدارِ (البيت الكبير) حَلَوى الشّام ، ثم قدّمُوا لهُمْ طُسُوتَ النّحاسِ ، وصابُون أنطاكيةَ ، وصبُّوا على أيدِيهم مياهَ الأباريقَ النحاسيّة ، الدقيقة النّقُوش .

أَحبَّــكَ ولَــدِى

ذات نَهارٍ ، قالَ « بَهْزادُ » لعُمَرَ الأنْطاكِى :

– آنَ لضَيْفِك « بهزادُ » أَنْ يرحَلَ أَيُّها المُخْتارُ (العمدة) . فقد شُفِىَ ابنُك « داوُدُ » من مَرَضِه ، وعافاه الله . ولا أُوصِيه إلا بالاحتِراسِ من الجُلوسِ على الأَحْجارِ الرَّطْبَةِ ، حتى لا يُعاوِدَه بَرْدُ الحَوْضِ ، والفَخِذَيْنِ .

عندئذٍ فُوجِىءَ الرجُلانِ بصوتِ « داوُدَ » يقُولُ لأبيه برَجاءٍ :

– لا تأْذَنْ له يا أَبِى فِى الرحيلِ عن أنطاكْيَةَ ، فأَنا بحاجَةٍ إليهِ الآنَ ، وأَنا سَلِيمٌ مُعافى أَكْثَرَ مما كنْتُ فى مَرَضِى .

كان « داوُدُ » قد دخَلَ القاعَةَ الكبيرةَ لتوِّه (حالاً) وسمِعَ ما قالَهُ « بَهْزادُ » لأَبيه . وقالَ الأبُ للطبيبِ ضاحِكاً :

– ها أَنْتَ قَدْ سمِعْتَ جوابِى أَيُّها الطبيبُ ، على لسانِ « داوُدَ » . أَحبَّك ولَدِى ، وتعَلَّق بك .

فقالَ « داوُد » لأَبيه :

– الحبُّ نعم . لكنّ حُبى لنْ يَمنَعَه من الرحيلِ عنّا ذات

يوْم . لكنّنِى بحاجةٍ إليه الآن ، لأتعَلَّم على يَدَيْه : اللغة الفارسية ، وعِلْمَ الطب ، وعِلْمَ الدواءِ . ولن تَضِنَّ (تبخل) عليْه يا أبِى بمال . ولنْ تحرِمَه إقامتُه مَعَنا ، من ممارسَةِ طبِّه ، بين أهْلِ « أنطاكية » وضواحِيها .

عندئذٍ قالَ الطبيبُ الفارِسىّ لداوُدَ بدهشَةٍ :

– أُعَلِّمُكَ الفارسِيةَ يا بُنى ، لا بَأْسَ بذلِك . لكنَّ .. الطبَّ .. كيفَ .. و ..

فقال « دَاوُدُ » بمرارة :

– كَيْفَ وأَنا لا أَرَى ، ولا أَكْتُبُ ولا أَقْرأ ؟ سأَقُولُ لك كيفَ يا سيّدِى . العلمُ معْلُومَات . والعِلْمُ يُلَقن ، ويَثْبُتُ فى الذّاكِرَةِ لمنْ يَشاء . والطبّ عِلْمٌ بدورِه . والعِلاَجُ يتِمّ بالسُّؤالِ والجَوابِ للمريض ، والتفكيرُ يُشخِّصُ المرض ، والأيدِى تتحسّسُه .. أَلا يُمكِنُ إذنْ لفاقِدِ البَصَرِ أن يتعلّمَ الطِّبَّ ، ويعالِجَ بالدّواءِ ، مستعيناً بسَواه ، حتّى وهو بلا بَصَرٍ ؟

وَجم (سكت) الطبيبُ الفارِسىّ ، ثم قَالَ باستِسْلام :

– غَلَبْتَنِى يا بُنَىّ . سأَقْبَلُ ذلِكَ يا دَاوُدُ ، وأُعَلِّمُكَ اللغةَ الفارسِيّة ، وما أَعْرِفه من الطبّ الفارسِىّ والعربىّ أيضاً ، لكن .

إذا أردْتَ أن تَفوقَنى فى العِلْم يوماً ، فشُدّ الرحَال إلى آسْيا الصّغْرى (تركيا) وتعلّم اليونانية هناكَ ، وتعلّم معها الطِّبَّ اليُونانّى .

عِنْدئذٍ قالَ « عُمَرُ » لبَهْزَادَ :

– من الأفْضَلِ ، لهُ ولَكَ ، أن نَبْعَثَ بداوُدَ إلى دِمَشْقَ ، ونُلْحِقَه طالِباً بِبيمَارسْتانِ (مستشفى) دِمَشْق ، ويتعلّم به الفارسِيّة ، واليُونانيَّة ، والطبّ ، والدّوَاء .

فقالَ لهُ « داوُدُ » :

– يا أبى . إن أحداً مِنْ أطباءِ دِمَشْقَ ، لن يسمَحَ بتعليمِ الطبِّ لمن فقَدَ بصَرَه . سيقُولُون : الطبُّ بحاجَةٍ إلى عينين ، فالطبُّ أكثَرُ من أىّ مهنةٍ أُخرَى بحاجةٍ إلى عيْنين . فلا أمَلَ لى فى تعلُّم الطبِّ إلا من طبيبنا الفارسىِّ هذا .

فقال « بَهزَادُ » لعُمَرَ الأنطاكِىّ :

– نطَقَ داوُدُ بالصّوابِ يا أبا دَاوُد . وسأبذُلُ جهدِى فى تعليمه ما عِشْتُ . ومن يدرى . قد أوثِرُ البقاءَ فى بلدتِكم الجميلة بقِيّةَ عُمرِى . لكنّنى ، يا أَبا داوُد ، بحَاجَةٍ إلى أهْلى ، وهُمْ مقيمُون ، فى « شِيراز » بفارِسَ (إيران) ، فلسوف تُمرّ السُّنُون ، ويطُول مُقامِى معَ « داوُد » .

فقال « عُمَر » لبَهْزَادَ :

– لا تَحْمِلْ هَماً لهذا الأمْرِ . غداً نُرْسِلُ من يأتِى بكُلِّ أهلِكَ إليْكَ . ونَشْرَعُ (نبدَأُ) فى إقامَةِ بيتٍ فسيحٍ ، لَكَ وللأَهْل ، فِى قريةِ « حبيبِ النّجار » .

النفس والجسد

كانَ الطبيبُ « بَهْزَادُ » مَوْسُوعَةً « دائرة معارف) حَيّةً ، متحرِّكة ، تَسْعَى على قَدَمَيْنِ . كانَ بارِعاً فى عُلُومٍ : المنطِق ، والرياضيّاتِ ، والطبيعيّاتِ ، بَرَاعَتَهُ فى عَزْفِ المقْطُوعَاتِ الموسِيقِيّةِ الفارِسيّة ، والعَربيّةِ ، على العُود . وكانَ يعرِفُ اللغَةَ العَرَبيّةَ مَعْرِفَتَهُ بلغةِ قَوْمِه الفارِسيّةَ . وكان يُحِبُّ التدريسَ لسِواه ، مِثْلَما يَهْوَى عِلَاجَ مَرْضاه ، لكِنّه لم يكُنْ راغِباً فى أَنْ يُؤَلِّفَ فى أَىِّ عِلْمٍ . فبعَضُ الناسِ ، مِمّنْ هُمْ مِثْله ، يُؤْثِرُون (يفضلون) الحَيَاةَ بعِلْمِهم ، ونفعَ الناسِ بهِ ، على أن يكونُوا مؤلّفين للعُلُوم . وكذلك كانَ هَذا الطبيبُ الفارِسىّ .

وراحَ « داوُدَ » يتعلّمُ على يدىْ « بهْزادَ » ، شهْرا بعْدَ شهرٍ ، وعاماً بعْدَ عامٍ ، كُلَّ مَا يعرفُه « بهزادُ » من العُلُوم ، فَقَدْ أَبى عليْهِ « بَهْزَادُ » أَنْ يَدْرُسَ الطِّبَّ ، قَبْلَ أَنْ يبدَأَ بدراسةِ



المنطِق ، والطبيعياتِ ، والرياضياتِ ، المعروفةِ فى زمانِه ؛ بَلْ وراحَ يُحَبِّبُه إلى المُوسِيقى ، ويُعلِّمه كَيْفَ يسمَع ، وكَيْف يعزِفُ ، حتى يتسِعَ أُفُقه العَقْلِىّ لمعارِفَ الطِّبّ ، وهى مَعَارِفُ مُتشابِكَةٌ ، مُعَقَّدةٌ ، بينَ النفسِ والجَسَد ، فالنفْسُ تُؤثّر فى الجسَد صِحّةً ومَرَضاً ، والجَسَدُ يُؤَثِّر فى النفسِ صحةً ومَرَضا ، وحتّى يرِقّ قلبه بالموسِيقى لمرضَاه ، مثلما تطيبُ نفوسُ هؤلاءِ المرضَى بسمَاعِ الموسيقَى ، ورُؤْيةِ الحدائقِ والبسَاتين .

.. وحان دور الطب

استجابَ « داوُد » لبَرْنَامَجِ (خطة) أستاذِه فى تعلِيمِه ، وتقدّم فى دِراستِه للغةِ الفارسية ، ولعُلُومٍ لا بُدّ مِنْها لمن يدرُس الطب ، حتى جاءَ يومٌ وَعَى فيهِ عقلُه الناضِجُ ، وحفِظَت فيهِ ذاكِرَتُه القوِيّةُ ، لغَةَ الفرسِ ، ومَعارِفَ العلومِ الدُّنْيَوِيّةِ التى لا يعرِفُها إلى زمانِه سِوَى العُلَماء .

وكانت قد مرَّت خمسُ سَنَوات ، بلَغَ مَعَها « داوُد » العشرينَ من العُمْر ، فأَخَذَ « بَهْزَادُ » يُعَلِّمُهُ ما يَعْلَمُه من معارِفِ الطبِّ ، تشْخِيصاً وعِلَاجاً ، وأعْرَاضاً وأَمْراضاً ، وأَدْوِيَةً مفردَةً أو مُرَكّبَةً ، من النّبَاتِ ، والأَحْجَارِ ، والحيوانِ ، والمعادِن .

واعتادَ « بَهْزَادُ » أن يصحَبَ تِلْميذَهُ « دَاوُدَ » مَعَه ، كُلّما ذهَبَ لزيارةِ مريضٍ من مرضَاه ، فى قُرَى « أنطاكْيَةَ » وضواحِيها ، ويصِفُ له بصَوْتٍ مسمُوع حالَ المريضِ ، وأعراضَ مرضِه ، ويجعلُه يتحسّس بيديْهِ مواطِنَ (مواضِعَ) الداءِ (المَرَضِ) فى جَسَدِ المريضِ ، ويذكُرُ له الدواءَ الشافِى لمرضَاه .

واعتاد « داوُدُ » أن يسمَعَ فى جَوْلَاتِه تهامُسَ النّاسِ :

« فاقِدُ البصرِ ويَدْرُسُ الطِّبَ ؟! لم نَسْمَعَ بهذا مِنْ قَبْل » .
واعتادَ « دَاوُدَ » ألا يَحْزَنَ أو يَفْرَحَ بما يَسْمَعه من تَعليقاتِ الاستِنْكارِ ، أو الإِعْجاب .

واعتادَ « بَهْزَادُ » أن يفاجِىءَ « دَاوُدَ » بالأَسْئِلَةِ ، حولَ مَرضِ مَرِيضٍ ، فكَانَ « داوُدُ » يجيبُه باستفاضَةٍ ، ودِقّة ، إجابَةً تجعَلُ « بَهْزادَ » يصِيحُ لهَا فرحاً . ورُبمّا صَفّق له فى إعجاب ، ثم يقول له :

– حَمَى الله لكَ عَقْلَك يا دَاوُد ، وأَبْقَى لكَ ذاكِرتَك ، ونَوَّر بصِيرتَك إِلَى الأبد .

وتَدرَّجتْ ثِقَةُ « بَهْزَاد » بداوُدَ ، فَرَاحَ يترُك لهُ فَحْصَ المرِيض ، يتسمّع بأُذُنِه نَبْضَاتِ قَلْبِه ، ويجسُّ (يتحسّس) بأصابِعِه مواطِنَ الأَلَم فى جسده ، ويدُقّ ناقِراً مَوَاطِنَ بعينِها من صَدْرِ المريضِ وظهْرِه ، ولا يفتأُ (لا يكُفّ) يسأَلُ عن صحْوِهِ ونوْمِه ، وهضْمِه وبوله ، ونوْبَاتِ مَرَضِه فى ليله ونهارِه ، ثم يلتفِتُ لأَسْتاذِه قائلاً :

– أَرَى أَنَّ مَرَضَه كذَا ، وأَنَّ عِلاجَه بكَذَا وكذا ، وغِذَاءَه يكُون بكَذَا وكَذَا .

آخر الدروس

وكانَ « داوُدُ » قد بَلَغَ من العُمرِ خمسةً وعشرِين عاما ، حينَ فاجَأَه « بَهْزَادُ » ذاتَ صَبَاحٍ بقَوْلِه :

– لا أَعْلَمُ يا داوُدُ من اليُونَانِيّةِ الكثير ، ولكنّنى صحبتُ فى بلادِ فارِسَ تُجّاراً من الرّومِ ، واستَمعْتُ إليهم ، وهُمْ يتحدثون اليونانيّة ، واللاتِينِية ، وتعلّمْتُ منهم ما يكْفِى للحدِيثِ مع اليونانيّين والرّومَانِيّين . وقد آنَ لكَ أن تُسافِرَ يا دَاوُدُ إلى بلادِ الرّوم فى الأناضول ، وبيزَنطة . ولذلِك ستحفَظُ عنّى ما أعِرفُه من اللغتيْن اليونانِيّة واللاتِينِيّة ، أنتَ ومنْ سيكُونَ رفيقاً لك ، فى سفرَكِ إلى تلكَ البلاد ، وإقامتِك هناكَ . ومن حُسْنِ حَظِّكَ أنّ ديارَ الأَنَاضُولِ كلّها ، قد خضعَتْ لحُكْمِ الأَتْرَاك العُثْمانِيِّين ، منذ أن فَتَح محمدُ الفاتِحُ « القُسْطنطينيّة » ، ولسوفَ تكُونُ فرصَةً لك ، ولرفيقِك ، لتعلُّم اللغَةِ التركِيّة أيضاً .

وامتثَل (أطاعَ) « داوُد » لأستاذِه الحبيب ، وحفِظ عنه معَ منْ سيكُون رفيقَه فى سفرِه ، ومُرْشِدَه بقية عمرِه ، ألفاظاً ، وجُملاً ، من لُغةِ اليونانِ ، ولُغَةَ الرّومَان ، والطبيبُ المعلّمُ يضبِطُ لهما النُّطْق ، ويُدَقِّقُ معهُما فى مخارِجِ الحُرُوف ، ويوضّح

لهما المعَانِى ، ويُحدِّدُ لهما موضِعَ كلِّ سُؤالٍ ، ومَوْطِنَ كلِّ جَوابٍ .

وداع

كان رفيقُ « دَاوُدَ » ، هو « أَحْمدَ » ، وكان ابنَ عمٍّ له ، وكانَ مُعَلِّماً من مُعلِّمِى الصِّبْيان ، وقد وَعَدَ أَبَا دَاوُدَ أن يَنْذِرَ ما بَقِىَ من عُمرِه ، ليكونَ رفيقاً لابنَ عمِّه « داوُدَ » إِلَى الأبد .

وكان الاثنان : « داوُدُ » و « أحْمَدُ » ، قد صارَا مُسْتَعِدَّيْنِ للسَّفرِ والاغْتِرابِ والتَّرْحَالِ ، طَلَباً للعِلْم حَيثُما كانَ . وقالَ « عُمَرُ » لولَدِه « داوُدَ » ، قَبْلَ أيّامٍ من سفَرِه :

– إن شِئْتَ زَوَّجْنَاك ، حتى لا تَفْتِنَكَ نساءُ الروم ، وحتّى يخْلُوَ بالُكَ لما تَطلُبُه من العِلْم يا دَاوُدُ .

لكنّ داوُدَ قالَ له :

– لا زَوَاجَ لمن يطلُبُ عِلْماً مثلى ، ويتَحرّك مَعَ رفيقٍ ، إلا حينَ يستقِرُّ بِى المُقَام ، فى مُقْبِلِ السِّنِين .

وَوَدّع « داوُدُ » وابنُ عمّه الأَهْلَ ، والطبيبَ الفارسِّى ، ورَكِبا فَرَسَيْنِ ، واتّجَهَا إلى الشَّمَالِ . يتبعُهما خادِمٌ على بَغْلَةٍ ،



وكانَتْ تسيرُ خلفَ الكُلِّ بَغْلتانِ أُخْريَانِ ، مُحمّلتان بقِرَبِ الماءِ ، والأَطْعِمَةِ المجفّفةِ ، والمقدَّدَة .

تاريخ مدينة

فى الطريق قالَ ابنُ العمِّ « أحمدُ » لداوُدَ :

– اللهُ وحده يعلَمُ متى نعُودُ إلى أنطاكْيَةَ .

فقال لهُ « دَاوُدُ » :

– أكْثَرُ مكانَ سأَحِنّ إليهِ بها ، هو أَطْلالُ هَذا المسْرَحِ الرّومانيّ . ففوقَ مَقاعِدِه الحجَرِيَّةِ ، كنتُ أَجلِس ، وأُفكِّرُ ، وأسْتَعيد دُروسِى ، وحيداً ، عَصْرَ كُلِّ يَوْم .

والتفتَ « داوُد » إلَى ابْنِ العمّ ، وأَضَاف :

– الغريبُ أَنّنِى لا أعرِفُ حتى الآنَ تاريخاً لأنطاكْيَةَ ، مِثْلمَا أعرِفُ جغرافِيّتها وأهْلَها . أنْتَ يا ابْنَ العمّ مُعَلّمٌ ، فأخبِرْنى .

فضحِكَ ابنُ العَمّ ، وقال :

– حِينَ انتشرتِ المسيحيّةُ ، صارَ فى « أنطاكيةَ » ثلاثةُ

بطارِكَةٍ للمذاهِبِ : المَلْكَانيّة ، والمَارُونيّة ، واليَعْقُوبيّة . وقد سَقَطَتْ أنطاكيَةُ فى قبضَةِ الفُرْسِ ، ثم استَردَّها الرّومان ، ثم فَتَحها العربُ على يدِ « أبى عبيدةَ بنِ الجراحِ » ، ثم استَولَتْ عليها الإمبراطورية البيزَنْطِيّة ، فالسّلاجِقَةُ الأَتْراكُ ، فالصّلِيبيُّون ، فالمْمَالِيكُ المصريّون . وهَا هِى أخيراً قد خَضَعت للأَتْراكِ العُثْمانِيين ، رُبمّا فى العَامِ الذى وُلِدْتَ أنتَ فيه ، أو بَعْدَه بقَلِيل .

وكانَا يواصِلَان سيرَهما بالجِيادَ والبِغَالِ ، ويتوقّفَانِ مع اللّيل فى الطّرِيق ، ويأْوِيانِ إلى خَانٍ (نُزُل = فندق صغير) صغيرٍ ، على الطّرِيق ، من هذه الخانَات ، المستعدّة فى اللّيْلِ والنهارِ لراحةِ المسافرين .

قرن الحرب

مُنْذُ العِقْدِ الثانِى ، من القرْنِ السادِسِ عشَرَ الميلادى ، الذى عاشَ فيه « داوُدُ بنُ عمرَ الأنطاكِيّ » ، وقد استولَى العثمانِيّون على الشّامِ ، ومصرَ ، وغربِيّ جزيرةِ العربِ (الحجاز) ، وشَمَالِ غَرْبِيّ فَارِس ، والعراقِ ، وجزيرَتَىْ : رُودِس ، وقُبْرُص ، وبِلَاد المجرِ بأَسْرِها . وبَسَطُوا سيادَتهم



الاسميّةَ على الشَّمَالِ الإفريقىّ كله . ولَقدْ بلغَتْ الإمبراطوريّة العُثْمانيّة فى هذا القرنِ أَوْجَ (قمة) اتِّسَاعِها ، وعِزَّ سُلْطَانِها ، وغايَةَ شُهْرَتِها ومَجْدِها ، قَبْلَ أن تَبدَأَ فى طريقِ انْحِدارٍ طَوِيلٍ ، لا يكادُ يحِسُّ بِهِ أَحَد .

وكانَ الرّوسُ ، بقيادَةِ الإمبراطور « ايفان الرهيب » يقُومُون بتطهيرِ حَوْضِ « نَهرِ الفولْجا » ، ويَرُدُّون جيوش الدولة الصفوية الشّيعيّةِ إلى الوراءِ ، فتوسّعوا فى بلادِ فارِسَ ، وحمّلوا

أهْلَها بحدِّ السّيْفِ على مَذْهبِ الشيعَةِ ، مِثْلَما فَعلُوا من قَبْل ، فى بلادِ مَا وَرَاءَ النهر (شرقِىّ بحيرةِ قزوين) وفى أفغانستان .

وفى هذا القرنِ الذى عاشَ فيه « داوُدُ » ضعُفَتْ أسبابُ الاتصالِ بين الشرقِ والغرْب ، والشمالِ والجنوبِ ، وكانت لهذا الضعْفِ عواقبُ وخيمةٌ (شديدة السّوء) . فالفِكْرُ الفارسّى الإسْلَامى ، قد صارَ عاجزاً عن إثارَةِ رُوحِ التّقدُم فى العَالَمِ الإسْلَامى .

وفى هذا القرنِ أَثَارَ البرتغاليُّونَ نُذُرَ شُرُورٍ اقْتِصَادِيّةٍ خَطِيرة ، على المشرقِ العَرَبِىّ بأسْرِه ، وخاصةً مصرَ . فقَدْ بَلَغَ « فاسْكُو دِى جَاما » بِسُفُنه ومَدَافِعِه الحربيّةِ ، الهندَ ، عن طريقِ رأس الرجاءِ الصالحِ ، وأقامُوا مُسْتَوطنَاتٍ عسكريّةٍ على طُولِ الساحِلِ الشرقِىّ لإفريقيّةَ ، وفى عُمَانَ ، وهُرْمُز ، وجزيرَةِ « سُقُطرى » اليمنيّة ، وشَنُّوا حَمْلَاتٍ عسكريةً على الحبشَةِ ، فتحوّلت التّجارَةُ بينَ الشّمالِ والجنوبِ ، عبْرَ دِلْتا النيلِ والبحرِ الأحمرِ ، إلى طريقِ رأسِ الرجاءِ الصالحِ . وبدأ غِنى مِصْرَ الهائِلِ ، والبُنْدُقيّة ، فى الانحدارِ إلى مَهاوِى الفقْر . ومهّدَ هذا الانحدارُ الطريقَ ، لكى يحتّلَ العثمانيّون مصرَ والشمالَ الأفريقى ،

وينزحوا (ينقلوا) إلى الأناضولِ خيرةَ العلماءِ ، والكتبِ ، والعِمالةَ الفنّيةَ الحِرفيّةَ الماهِرةَ .

وفى هذا القرن هاجم الجزائريّون ، والتّونسيّون سواحِل أسْبانيا ، وهاجم العُثمانيّون جبَلَ طارق ، ومدينة « نيس » (بفرنسا) ، ومدِينةَ « أوترانتو » بإيطاليا ، وسواحِلَ صقلّية ، واستولَوْا على بلادِ البلقان بأسْرِها ، إلى بحرِ « الإدرياتيك » .

وهكذا كانَ القرنُ السادسُ عشرَ ، قرناً عاصِفاً بالحُروب ، وتغيُّرِ موازينِ القُوى بيْنَ الشرْقِ والغرب ، والشّمالِ والجَنُوب ، فَسَرَتْ (انتشرت) الانهياراتُ الاقْتِصاديّة فى بلادِ الشرْق والجَنُوب . ومع هذه الانهياراتِ بدَأ التخلّف الثقافِىّ والعِلْمِىّ والفنى ، فى الشّرق والجنُوب ، بقدْرِ ما بدأتِ النهضَةُ فى بلَادِ الشّمال .

وكانَ على « داودَ بنِ عمرَ الأنطاكى » الكفيفِ البصرِ ، وَوسْطَ هذا الدّمارِ فى المشرقِ كلّه ، أنْ يكُون طبيباً عالِماً ، ومؤلّفاً فى الطِّبِّ ، والصّيْدَلَةِ .

العودة إلى أنطاكية

أتقنَ « داودَ » خلالَ سنواتٍ عديدةٍ ، اللغةَ اليونانيةَ واللاتينيةَ والتركيةَ ، وحصّلَ معارفَ الطبّ اليُونانىّ مع ابن عمه ، وعادا معاً إلى « أنطاكْيَةَ » ، يحملان معهما ، على ظهورِ البِغالِ صَنادِيق مَلْأى بالكُتُبِ المنْسُوخة .

وحَزِن « دَاوُدُ » حينَ عَلِمَ بخبرِ وفاةِ أبِيه ، وأمّه ، وذهَبَ لزيارةِ قَبْرَيْهما ، وجلَس « دَاوُدُ » يقرأ الفاتِحَةَ على رُوحَيْهما . وخاطَبَ أَبَاه ، فى مَثْواهُ (قبره) ، بصوتٍ مَسمُوع ، قائِلا :

— وددْتُ لو كُنْتُ مُبصِراً ، لأَحْمِلَ فى قَلْبِى صورَةَ وجْهِك يا أبِى .

وفُوجِئَ « داود » بالطبيب الفارِسىّ « بَهْزادُ » ، يجلِسُ بجانِبه ، ويقُولُ له :

— رحلَتْ أُمُّكَ عنّا أوّلاً ، وَودّع أَباكَ الدُّنيا بعدَها ، قبْلَ شَهْرٍ فقطْ يا داوُدُ . و « أنطاكْيَةُ » بأسْرِها تَنْتظِرك لتكُونَ رئيساً لقَرْيَةِ « حبيبِ النجار » ، وطبيباً لمرضَاها . وقد ترَكَ لَكَ أبُوك ثَروةً طائِلَةً ضَخْمَةً ، فأنت ابنُه الوَحِيد .

وبرغم حُزْنِ « داودُ » فقد فرِحَ لسماعِ صوتِ معلّمه ، فعانقَه ، ومشَى وإيّاه عائِدَيْن إلى بَيْتِ الأَهْلِ ، مع ابنِ العَمّ . وكانتْ خُطَى « داوُدَ » ما تزالُ تَذْكُرُ طُرُقَاتِ « أنطاكْيَة » ، ينحرِفُ معهَا حِيناً ، ويصعَدُ معهَا حِيناً ، وينحدر وإيّاها حِيناً آخَرَ .

وفى بيتِ الأهلِ ، وقد انقَشَعَتْ (زالت) غَمَامَةُ (سحابة) الحُزْنِ ، جلَس « دَاوُدُ » وابنُ العم ، يُحدِّثَانِ « بَهْزَادَ » عن بِلَادِ آسْيَا الصغرى ، والعُثْمانيين ، والرّومَان البيزنطيين ، الذين آثَروا (فضّلوا) البَقَّاء ، مع الأَتْرَاك ، فى المُدُنِ والقُرَى . وكانَ « بَهْزَادُ » قد بَلَغ الغاية من الكِبَرِ فى السِّنّ ، وآثَر البقاءَ مع أَهْلِه فى أنطاكْيَة ، بعيداً عن بطْشِ الصَّفَوِيِّين الشيعيّين ، وصِرَاعَاتِهم الحربيّةَ مع الأَتْرَاكِ العُثْمانيين .

سأرحل إلى مصر

وأَعْلَن « داوُدُ » فى اللّيلِ ، لبَهْزَادَ ، وأَعْيانِ قَرْيَة « حبيبِ النّجّار » ، أنّهُ سيُغَادِرُ أنطاكيَةَ إلى مِصْر . فمِصْرُ لا تَزَالُ داراً للعِلْمِ والعُلَماءِ ، والمَمَاليكُ لا يَزالُون يحكُمونَ مِصْرَ ، من قِبَلِ العُثْمانيين ، فلم يتغيرْ فيها شَىءٌ كثيرٌ ، عَدَا تدفُّقِ التِّجَارَة ،

عبْرَها ، بينَ الشّمالِ والجَنُوب . وفى مِصْرَ ثَمّةَ عِلْمٌ كثيرٌ ، ما يَزالُ هو بحاجَةٍ إليْهِ .

وتفهّم أَعْيَانُ القريةِ رَغْبَةَ « داوُدَ » ، وعَرَضُوا عليهِ شراءَ ما وَرِثه من متاجِرَ ، وعقاراتٍ ، ومزارِعَ ، ليستَعين بثَمَنِها على حياةٍ وَادِعةٍ فى مدينةِ القَاهِرَة .

وقال « بَهْزَادُ » بقلَقٍ علَى « داوُدَ » :

– كيفَ ترحَلُ وحدَك ، وتُقِيمُ وحْدَك ، فى مدينَةٍ مِثْلِ القَاهِرة ، وهى واسِعةُ الأَرْجاء ، مُزْدَحِمَةٌ بالنّاسِ ؟

فَسَارَع ابنُ العَمِّ يقُول :

– عاهَدْتُ « داوُدَ » على البَقَاءِ معه . وسأظَلّ لهُ ، مِثْلَما كُنْتُ ، القَارِىءَ الذى يقرأُ له ، والكَاتِبَ الذى يُملِى علَيْه ، والدَّلِيلَ الّذِى يسيرُ معَه فى الطرِيق .

وضَحِك ابنُ العم ، وقالَ لداوُدُ :

– فى مِصرَ ، يا ابْنَ العَمّ ، ستتزَوّج من بنَاتِ مِصْرَ .

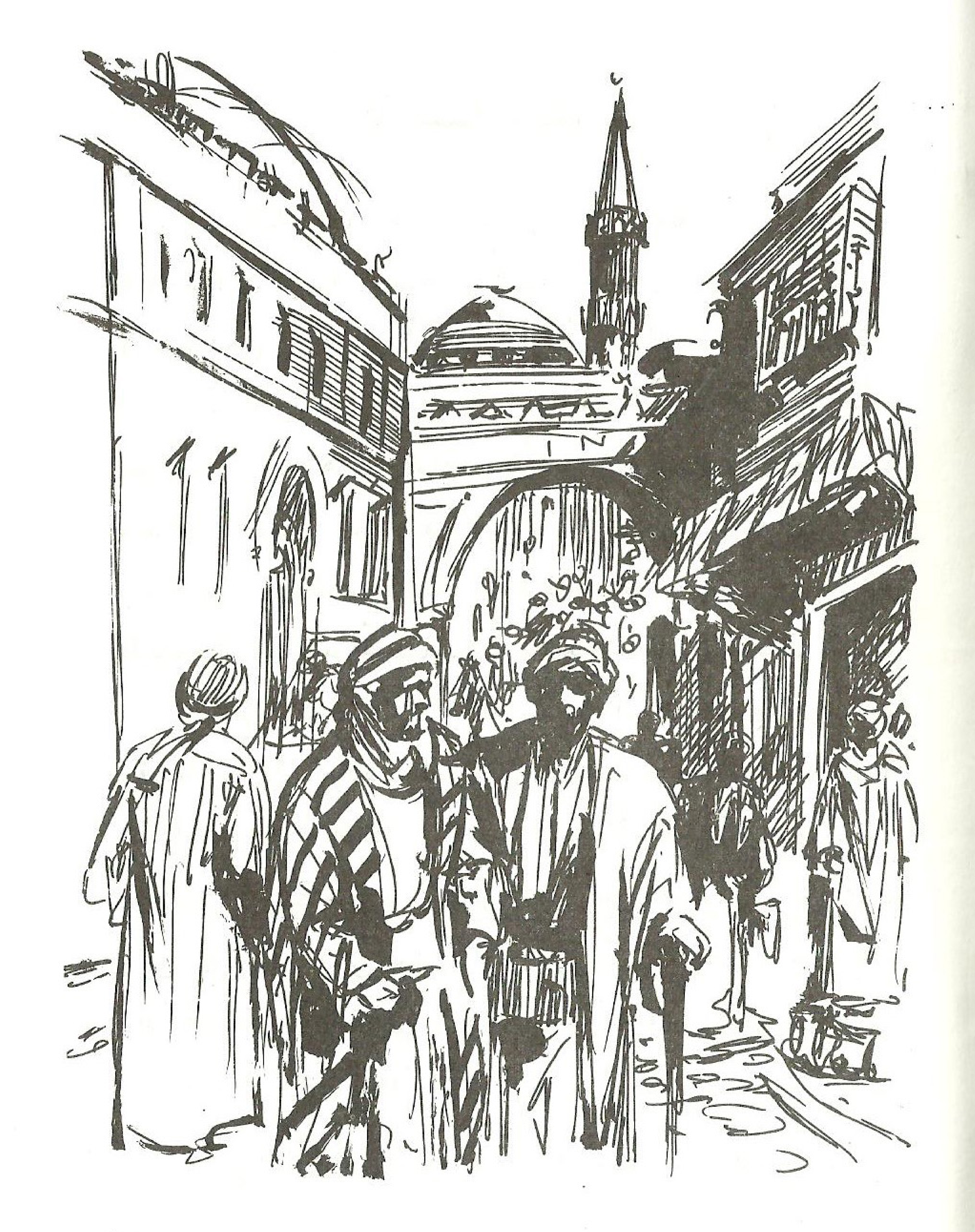
هنـا المُقـام

هَبَط « داوُدُ » وابنَ عمه ، أَرْضَ مِصْر ، واستقرّا بحىِّ الأَزهر فى القاهِرة . وولّى « داوُدُ » وجْهَهُ شَطْرَ (نَحْو) البيمارستانات القاهِريّة ، وخاصةً البيمارستان المنصُورى . وكانتْ بها ، آنذاك ، مكتبَاتٌ غِنيّةٌ بكُتُبِ التّراث ، وبالأَطِبّاء العُلَماءِ ، من أهْلِ مِصْر ، ومن المهاجِرين إليها ، هَرباً من الفِتَنِ والاضْطِرَابَاتِ .

ووجَد « داوُدُ » ، فى القَاهِرة ، الملْجَأَ ، والأَمْن ، والعِلْم ، فالمدِينةُ هَادِئَةٌ ، لا يُحِبّ أهلُها سَفْكَ الدّمَاء ، والتديُّنَ بها مُعْتَدِلٌ ، لا تَزَمُّتَ فيهِ ولا تَقْصِير ، والمواطَنَةُ فيها حَقٌّ للمُسْلِم والمسيحِىّ واللاجِىءِ والمغترِب . واطمأن قَلْبُ « داوُدَ » ، فقال لابن عمّه :

– هُنَا المُقَامُ ، يا أَحْمد ، إلى أَنْ يشَاءَ اللهُ .

وتزَوّجَ الاثْنَان ، وعكَفَ « داوُدُ » فى البيمارستان المنصُورِىّ ، على كُتُبِ الطِّبِّ العربيّة ، يقرأُ له ابنُ العَمّ ، ويُمْلِى هو عليْه ملاحظَاتِه ، فيُدَوِّنَها (يكتُبُها) أولاً بأوّل ، ليرجعَ إليهَا حِينَ يشَاء .



دراسة منظّمة

فى القاهِرَة ، وفى البيمارستان المنصُورِى ، درس « داوُدُ » ، دراسة منظمة ، كُتُبَ السابِقين ، فى علمِ الدواءِ (الصيدلة) ، عن الأَدْوِيَةِ المفردَةِ ، والمركّبَة ، والنباتيّة ، والحيوانيّة ، والمعدنيةِ ، وعرَف أسماءَها التى يتعامَلُ بها أَطِبَّاءُ مصر ، ومَصَادِرَها ، وقُواها ، وأهمِيَّتَها فى علاجِ الأَمْرَاض ، وعرَف المزيدَ عن الأَمْرَاض ، وأعراضِها ، وأسبابِها ، وعلاجِها ، وأضافَ إليها مَا عَرَفه وهو بالشّام ، وتركِيا ، فاجتمعَتْ لديْه معرفةٌ طبيةٌ نباتيةٌ ، بلغَ عددُها ثلاثَةَ آلافِ نَبَاتاً ، حصّلها من كُتُبِ التّراثِ العربية ، واليُونانيّة ، والفَارسيّة ، وقَرأَهَا بلغاتِها ، وكانتْ قائمةُ علماءِ هذه المعرفة بالدواءِ ، كثيرةَ الأسماءِ ، غزيرةَ العَطَاء ، وبيْنَ هذه الأسماء ، كانَ ابنُ رَبَن الطّبَرِىُّ ، والكِنْدِىُّ ، والرّازِىُّ ، وابنُ العبّاس الأَهْوازِىّ ، وابنُ الجزّارِ ، وابنُ سِينا ، والبيرُونِىّ ، وابن ماجه ، وابنُ التِّلميذ ، والغَافِقِىُّ ، والإِدْرِيسىُّ ، وابنُ ميمونَ ، وابْن البِيطارِ ، وكُوهِين العَطّار .

وقُدِّرَ لداوُدَ أن يكونَ هو آخرُ العلماءِ العرب بالدّواء ، وأَنْ

يُؤَلِّف فيه ، هو الكفِيفُ البصرِ ، أَكْبَرَ وأَخْلدَ وأَشْهَر كتابٍ ، فى عِلْمِ الدوَاءِ .

سرّ الحبّ

وذاعَتْ شُهْرَةُ « داوُدَ » فى البيمارستَان ، ومدينةِ القاهرة ، وضَوَاحيها ، كطَبيبٍ مُعالجٍ للفقراءِ والأغنياءِ ، فى حَىِّ الأَزْهَر . فعُيِّن بالبيمارسْتَان المنصورِىّ رئيساً للعشّابين فى ذلِكَ الحين (الصيادلة) . وتعزّزت مكانتُه فى البيمارستانِ ، مع السنواتِ ، حتى دعَاه إليهِ رئيسُ البيمارستان ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وقال له :

– ياداوُدُ . آن لَكَ أن تَشْغَل مَكَانِى ، رئيساً لهذا البيمارستان ، فقد كبِرْتُ فى السِّنِّ ، وآنَ لِى أنْ أستريحَ من عناءِ العَمَلِ ، وقد اختارَكَ الأطِبّاء ، فى هذا البيمارسْتَانِ لتكونَ رئيساً لهم . إن قبِلتَ ، سيُصْدِرُ الوالِى العُثْمانى ، قراراً بتعْيِينِكَ فى هذَا المنْصِبِ . وأَرَى أن تَقْبَله ، فلَكَ من نُورِ البصِيرة ، وحُبِّ المِهنَةِ ، ما يجعلُك أهلاً (جديرا) لهذَا المنصِب .

وقبِل « داوُدُ » ، فقالَ له رئيسُ البيمارستان ، ضاحِكاً :

– كَيْفَ أَحبّكَ الناسُ يا داوُدُ ؟ العلْمُ والمهَارَةُ لا يكْفيانَ لكسْبِ قُلُوبِ الأغنياءِ والفقراءِ .

فقال له « داوُدُ » بتواضُعٍ :

– هذَا من نِعْمَةِ الله . وأظنّ أنّ ذلِكَ يرجعُ إلى أمرَيْن : فأنَا أُعلِّم الناسَ كيْفَ يحافِظُون على صحّتِهم بالوقايَةِ . وكيف يعالِجُون أنفسَهم حين يمرضُون ، خاصةً فى الأَحوْالَ التِى لا تدعُو إلى استِشَارَةِ الطبيبِ .

ألقـــاب

ومَنَحتْ مدينَةُ القاهِرةِ ، على أَلْسِنَةِ الأَطِبّاء ، والنّاسِ « داودَ بنَ عُمرَ الأنطاكِيّ » أَلقاباً ، يَفْخَرُ بها ويزهُو أىُّ عالِمٍ طبيب ، وبين هذه الألقاب ، كانتْ أَلقَابُ : أَبقراط زمانِه ، والعلّامةُ الطبيب ، والحكيم ، والماهرُ ، والفريدُ ، والطبيبُ الحَاذِق (الماهر) ، والعالِمُ الكامِل ، و .. الصّيْدَلَانِىّ الضّرِير .

وجلَس « داوُدُ » ذاتَ ليلةٍ ، مع ابنِ عمّه ، وقالَ له :

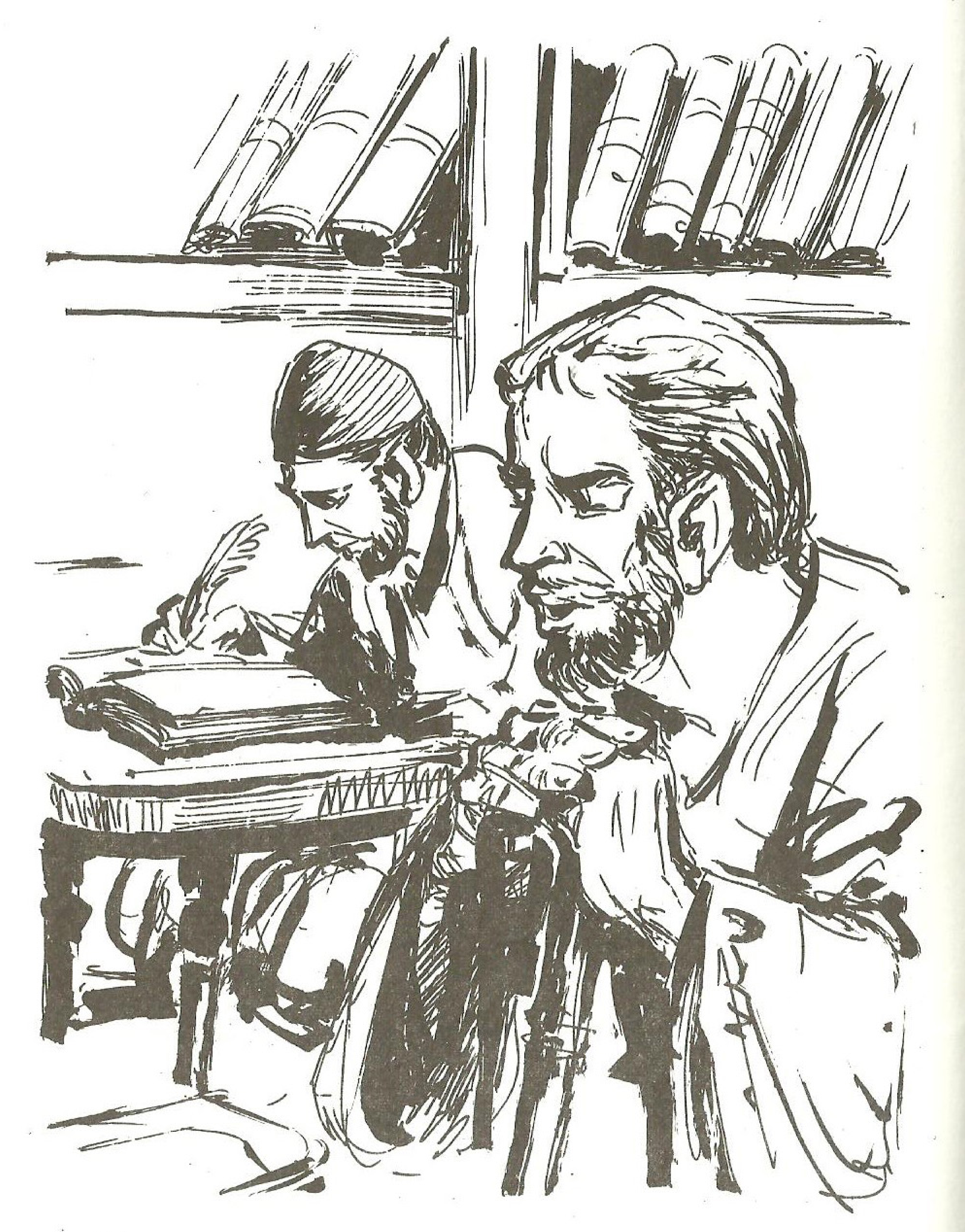
– أَعِدَّ لنا أوراقاً ، وأقْلاما ، وأحْباراً ، فقد عزَمْتُ على

أَلاّ تَذْهَبَ خِبرتِى بالصّيْدلَةِ مَعِى ، حينَ أودع الدُّنْيا . لقد جاوَزْتُ من العمرِ خمسةَ وخمسِينَ عاماً يا ابنَ العم . وصارَ من حَقِّ العِلْمِ علَىّ ، أن أُدوِّن (أُسَجِّل) خبرَتِى ، ومعارِفى ، بالدوَاءِ .

وكانَ السلطانُ العُثْمانِىّ « سُليمان الأول » قد تُوفِّىَ فى ذلِك العام ، وتولّى مكانَه السلطان سليم الثانى ، وَوَلِىَ أمْرَ مصر ، من قِبَلِ العُثمانيين ، وَالٍ جدِيد .

مـــن الذاكـــرة

فى السّنواتِ التالِيَةِ ، وطَوَالَ أَكثَر من رُبْعِ قَرْن ، راحَ « داوُدُ » يُملِى على ابنِ عمِّه ، ومن ذاكرَتِه القويةِ العجيبة ، كتاباً فى ثلاثةِ مُجلَّداتٍ ، عن الأدوِيةِ المفردَةِ ، والمركّبةِ ، من النّباتَاتِ ، والمعادِن ، والحيواناتِ ، ونادِراً ما كانَ يتوقّف ، ليتثبَّتَ لنفسِه وللعلمِ من أمرٍ شكّ فيه ، أو غابَ عنه ، فيطلبَ من ابنِ عمّه أن يفتحَ له مرجعًا بعَينِه ، ويقْرَأَ له فى فَصْلٍ بعينِهِ ، معلومَاتٍ بعينِها ، عن نَباتٍ ، أو حجرٍ ، أوَ معْـدِن ، أو حيوانٍ . ثم يواصِلُ الإملاءَ من جديد ، عن أَنْواعِ العطارات



عندَ العشابين : العِطَارَاتُ المُرّة ؛ والأَفاوِيه (التوابل) ؛ والبَلَاسِمُ ؛ والعِطَارَاتُ المُسَهِّلَةُ والمُلَيِّنَةُ ؛ والقَـابِضَةُ ، والعِطَارَاتِ المنوِّمَةُ والمخَدِّرَة .. عن : الكينا ، وجَوْزِ القيىء ، والهِنْدُبَاء ، والدّاتُورَة ، والخَشْخَاش ، والكَسْكَرَة ، والبُنِّ ، والشّاى ، والحِلْبَة ، وعُودِ رِيحِ المغربى ، وقِشْرِ الرّمّان ، والعَكْنَة أو السُّورَنْجَان ، وعرقُ الذهب .. وعنْ السَّنامِكَة ، والعشبةِ ، والبابُونج ، والرَّاوندِ ، والتمرهِنْدِى ، والخردلِ ، والحنظلِ ، والصَّبر .. وعن القِرفةِ ، والكَرَوايا ، والشّمَر ، واليَنْسُون ، والكُزْبرةِ ، والكافُور ، والزنجبيل ، وجَوْزِ الطّيبِ ، والبُهارِ ، وكُبَابَةِ صينى ، والمرِّ ، والجَاوِى والبَلْسَم ، والحَنْتِيت ، والمَيْعَة السائِلة ، والمصْطكَى ، والكْتيرا ، والعنبرِ ، والقَنَاوَسَق ، وآلاف سواها من النباتات ، فضلاً عن المعادِن ، وأجزاءِ الحيوانات .

ملح الطعـام

وحين وصلَ « داود » إلى ملحِ الطعام ، قال لابنِ العمِّ :

اكتُب يا أَحْمَد .

فضحِك « أحمدُ » وقال :

– لم أَتوقّفْ عنِ الكتابةِ قطّ .

ولم يضحَكْ « داوُدُ » لدُعابةِ ابن العم . كان رأسُه مشغولاً بما سيُملِيه . قال :

« المِلحُ إمّا معدِنىّ ، ويسمى : البَرّى ، والجبَلِىّ ، وإمّا مَائِىّ (يستخرج من مياه البحيرات والينابيع والبحار) . ويُطلق على : التّنكارِ ، والقلْى ، والبُورَقِى ، والأَنْدرانى (كلّها أنواعٌ من الملح) . وكلّه يستأصِلُ (يقضى على) البلغمِ ، والرطوباتِ اللزجَةِ ، والسَّدَد (فى الشرايين) ، ونَزْفِ الدّم ، ووجَعِ الأسنانِ ، واللحمِ الميّتِ ، ويُدْمِلُ الجِرَاح ؛ ويُذْهِبُ الحَكّة ، والقُرُوحَ ، والجُدَرِىّ مع الأدهان ، خصوصاً مع الزيت ؛ ويمنَعُ التّخَم ، وفَسادَ الأطعِمة ، ويحسِّنُ اللوْن ، وينظّفُ المعدَة ، ويقِى من الجُذَام » .

ليت الشباب

وحين انتهى « داوُدُ » أخذَ « أحمد » يحرّك أصابِعه المجهدة ، ليريحَها ، ثم قال :

– قرأتُ فى الكتبِ عليك عن هذا كلّه . هناكَ فى تركيا ،

وفى دمَشْق ، وهنا فى مِصرَ ، لكن حافِظَتِى (ذاكِرَتى) لم تعِ كلّ ما أمليته عَلَىّ ، ولم تميّز بين هذا وذاك .

فضحِك « داوُد » وقال :

– لو كانتْ لديْكَ ذاكرةٌ مِثل ذاكرتِى ، ولو كانتْ لديكَ الرغبةُ فى التحصِيل ، لما وجَدْتُ ابنَ عمٍّ مثلَك ، أُملِى عليه ، ولرُّبما كُنْتَ قد صِرْتَ ، أنتَ الآخرَ ، عالِماً بالدّواء .

فقالَ ابنُ العَمِّ :

– إنّى سعيدٌ بصُحبَتِكَ يا دَاوُدُ ، وأشْهَد أنّك جمعتَ ما تفرّقَ فى الكُتُب ، وميّزتَ بالخِبْرَة بين ما اختلفَتِ الأقْوالُ فيه ، بين الأطباء ، وعلماء النبات . لكن ..

فقال داوُد :

– ماذَا يا ابْن العَمِّ ؟

فقال « أحمدُ » جادًّ :

– كبِرْنَا فى السِّن معاً يا دَاوُد . وبُودِّ كلّ الناس ، أن يَعْرِفُوا مَثلَنا ، ما يُعيد القُوّةَ إلى الكُهُول والشيوخ .

فضحِك « داوُدُ » ضحِكاً طويلاً عالِيا ، ثم قال :

– كلّ الناسِ .. أمْ .. أنتَ يا ابْنَ العَمّ ؟

وأضاف :

– عليكَ بالتّوابِل ، واليَنسون ، والقُرنفل ، والقرفةِ ، والنّعناعِ ، والبقدُونس ، والثومِ ، والبصلِ ، والفُلْفُل ، والبُهارَات ، والشّطة ، وجوزةِ الطّيب ، وجذورِ الكَرَفس ، فاجعلْها فى طعَامِك من العَسَل ، والبَيْض ، والحَمَام ، والشّواء (الكباب) ، والكَلَاوِى ، واللّوزِ ، والفُولِ الأخضر ، والأسْمَاكِ ذَاتِ الأصداف . وعَلَيْكَ بفُلِّ البُنْدُق ، وزيْته ، والمِسْك ، والعنْبر ، فاجْعَلها فى شَرَابك . وإذا أردْت أن تتسلّى بينَ الطعامِ والطّعَام ، فَعَلَيك بأُم الخُلُول ، وأمثالِها من ذواتِ الأصداف . وارجِع فى هذا كلّه إلى ما أمليْته عليْك .

وبقيت المقدمة والذيل

ووضَع « داوُدُ » عنواناً لكتابِه هو : « تذكِرَةُ أُولِى الألْبابِ والجامعُ للعَجب العُجاب فِى علْم الطبِّ » . وحينَ اطلَعَ عليهِ رئيسُ البيمارستان الأَسْبق ، هالَه الجهْدُ الذى بذلَه « داوُدُ » فى تأليفه ، وقالَ :

– جعلتَ معارِفَ العلاجِ والتّداوِى مُشَاعَةً بين كلّ الناس يا دَاوُد ، ولَمْ تتْركها حِكْراً (وقفا) على الأطِبَّاء . سوفَ يكرهُكَ الأَطباء الذينَ أحبّوك لذلِك يا داوُد ، فمرْضاهم سوف يقلّون عدَداً .

فقال « داوُدُ » مهوّنا الأمر :

– يا صاحِبى . أكثَرُ الناسِ فى زمانِنا لا يعرفُون القراءَةَ والكتَابَة ، ولن تقِلّ حاجَةُ الناسِ أبدًا إلى الطبيب ، ليُشَخِّص لهُم أمراضَهم ، ويداوِيَهُم مِنها . وأظنُّ أن كلَّ ما فعلتُه ، هو أنّنِى أضفْتُ جماعةً مِنَ العَطّارِين إلَى الأطباء ، ليُسْعِفُوا المَرْضَى ، بما يحتاجُونه من عِلَاجٍ فى الأمْراضِ اليَسِيرة ، والوَعْكَاتِ العَابرة ؛ وأنّنِى جمعتُ كلّ ما دوَّنَه السابِقُون ، وتفرّق فى بُطُونِ الكتب ، فى كتابٍ واحِدٍ ، سيظَلّ ، فيما أرجُوه ، مرجعًا للأطباءِ ، والصيادِلة ، والعَطارِين .

وأضافَ داوُدُ :

– على أنَّ كتابِىَ هذا ، حين فكرتُ فيه ، وجدتُه ينقصُه أمران ، سأَتدارَكُهما من الغدِ إنْ شاءَ الله .

فقالَ له رئيسُ البيمارستان الأسْبَق :

- وما هُما هذانِ الأمْرانِ ؟

فقال « داود » :

- مُقدّمةٌ جامِعَةٌ فى صنوفِ العُلوم ، وبحوثٌ أُخْرَى فى عِلْمِ الطبّ والأمْراض ، وفى الأَدْوية المفردَةِ والمركّبة ، وبعْض الفذْلكات (النوادر) والأخبار ، لتكُون فى الكِتَاب ، مثل البُهار فى الطّعَام .

عندئذٍ قالَ ابنُ العم مُغاضِبا :

- إذَنْ سنُعِيدُ كتَابَة ما كَتَبْناه .

وضَحِك الثلاثَة . وقالَ رئيس البيمارستان الأسْبَق :

- هذا أمرٌ ، والأمرُ الآخرُ يا داوُدُ ؟

فقال « داوُدُ » :

- ذيْلٌ للكتاب ، يكونُ له خاتمةً ، عنوانهُ : « تَزْيينُ الأسْواقِ بتفصيل (ترتيب) أشواقِ العُشّاق » . فالمحِبّون فى زَمَانِنا يعانُون أمراضَ النفسِ من الحُبِّ ، وينشدُون عندَنا نحنُ الأطِبّاء ، ولَدَى العطارِين ، ما يُعينهم على النّسيان والسّلْوى ، إذا عزّ وصْلُ الحبيب ، لسبَبٍ من أسباب الفقْر والغنى ،

أو القُبْحِ والجَمَال ، أو الصِّغرِ والكِبَرِ فى السِّن ، والشرَفِ والضَّعَة . وسيكُون هذا الذّيْل ، تلخيصاً لكتابِ « محمدٍ السراج » فى هذَا الموضوعِ .

تذكرة داود

نَسخَ الورّاقُون كتابَ « داوُد » فى الطبّ والصَيدلة ، فتخاطفَتْه أيدى الخاصّةِ والعامّةِ ، مع الأطباءِ والعّطارِين ، وسرْعَان ما نَسُوا اسمَ الكتاب ، وصَار معرُوفا بينَهم باسم « تَذكَرةُ داوُدَ » ، ونَسُوا معه كتاباً آخرَ لداوُدَ هو : « البَهْجةُ والدّرَرُ المنتَخَبَة فى تشحِيذِ الأذهان ، وتعدِيلِ الأمْزِجة » ؛ ورسائلَ (كُتَيّبات) عن حَجَرِ الفلاسفة (الذهب) ، وعن إدخالِ أحكامِ النّجومِ فى عِلْمِ الطّبِّ .

الإنسان .. والعلم

عامَ ألفٍ وثمانيةٍ هجرية ، ألفٍ وخمسمائةٍ وتسعةٍ وخمسينَ ميلادية ، اجْتمع حوْل « داوُدَ » فى بيتِه بالأزْهر ، عددٌ من تلامِيذِه ومحبّيه ، وبينَهم أطباءُ وعطّارُون ، وهواةٌ للمعرفة الطبيةَ . وراحَ « داوُدُ » يقولُ لهم حِكَمَه ووصاياه :

« يكفِى العلمَ شرَفا أن الكُلّ يدعيه ، وكفَى الجهلَ ضَعَةً أن الكُلّ يتبرّأ مِنه » .

« الإنسانُ يحترِمُ الإنسانُ بقدرِ ما يملكه من معرفةٍ وعِلمٍ . وتزدادُ قيمتُه إذا مارَس مهنةَ التعليمِ والتأليفِ » .

« لقَدِ ارتفعَ مُستوى الإنسانيةِ ، حينمَا استَلَم المسلمُون مهنةَ الطبِّ فى العلمِ » .

« الإنْسَانُ إنسانٌ بالقوّةِ إذا لم يعلَم ، فإذا عَلِم كانَ إنساناً بالفعل » .

« عارٌ على من وُهِب النُّطْق والتمييز ، أن يطلبَ رُتْبَةً (مكانةً) دونَ الرّتْبَةِ القُصْوى (العُلْيا) فى المعْرِفة » .

وسألهُ طبيبُ شابٌّ ، قالَ له :

– ما الذِى دفعَك حقّا إلى تأليفِ كتابكَ « التذكِرَة » ، فتصدَّيْتَ به لمهمةٍ يهرب الكثيرون من القيامِ بها ؟

فقالَ له « داوُدُ » :

– حينَ دخلتُ مصر ، رأيتُ فقهاءَ ، وهُمْ مرجعُ الأمورِ الدينيةَ ، يمشُون إلى يهودِىّ قليلِ الشأنِ فى التطبيبِ ، وليسَ

بطبيبِ ، فعزمتُ على أنْ أجعَل الطبّ عِلْماً مُشاعا كسَائِرِ العلوم ، يُدْرَس ليستفِيدَ به المسْلِمُون .

فقال له الطبيبُ الشّابُّ :

– لكنّ سُفهاءَ لازَمُوك ، وتعاطَوْا الطبَّ على يدْيك ، ثم استَغَلّوا ذلِك فآذَوا الناسَ فى أموالِهم وأَبْدانِهم ، طلَباً للنفعِ والكسْبِ ، بإطالةِ أمدِ (مُدّة) العلاجِ .

فقال لهُ « داوُدُ » :

– يا بُنىَ ، بِى وبدُونى ، ستَجدُ فى كلّ مهنة ، فى كلّ بلد ، فى كلِّ زمن ، من يفْعَل هَذا الشّر .

وتنَهّد « داوُدُ » وقالَ :

– بسبَبِ هذا البعضِ مِمّنْ لا ضمائِرَ لهم ، لُمت « أبقْراطَ » يوماً وانتقدتُه ، لأنه عمّمَ مهنةَ الطبِّ فى زمانِه ، وأعطاهَا لكلِّ النّاس ، ثم رجعْتُ عن هذا اللوْمِ والنقْدِ ، ففسادُ البعِضِ لا ينبغِى أن يحْجب الخيرَ والنّفْع عن كلِّ النّاس ، ولا المعرِفةَ عن بعْضِ الناس ، دونَ بعضِهم الآخرَ .

وكانتِ الساعةُ قد قاربتْ منتصفَ الليل ، فنهَضَ زوّارُ

« داوُدَ » مستأذِنين ، ليتيحُوا له فُرْصةَ ليَرْقُدَ قليلاً ، قَبْل صلاةِ الفجْرِ ، ثم يغادِرَ دارَه ، ليصحَب قافِلةً للحُجّاج ، مُسافِرةً إلى مكّةَ عبْرَ سِيناء .

●

فى مكّةَ أَدّى « داوُدُ بنُ عمرَ الأنْطاكِى » فريضةَ الحجّ ، ولم يكدْ ينتهِى منها حتّى وافاه الأَجل ، وهو يُصلّى الفجرَ فى المسجِدِ الحَرام . وعادَ الحجيجُ بدونِه ، فَحزِن عليْه أهلُ مصرَ ، وكانَ عزاؤُهم فيهِ ، وسلواهُم عنه ، فى كتابِه الخالِد « تذكرة داود » .

وفى أرجْاءِ الأرض ، وإلى عديدٍ من لغاتِ العالم ، فى العصرِ الوسيطِ والحديثِ ، تُرْجمت « تذكرة داود » ، وأَعدّ الأطباءُ عنها التهذيبات ، ولها الملخّصات .

وعن « داودَ » وكتابِه « التذكرة » ، كَتبتِ الموسوعاتُ العَالَمية ، وكتبَ كثيرونَ من العلماءِ ومؤرخو العلوم ، والصّيادلة ، فى الشرقِ والغرب . بينهم « المُحِبّى » فى كتابه « خُلاصة الأثر » ، و « حَسَن عبد السلام » فى كتابِه « ذخيرَة العَطّار وتذكرة داوُدَ فى ضوءِ العلمِ الحديث » ، و « جابر

الشُّكَرِى » فى كتابِه « الكيمياءُ عند العَرب » ، و « محمدُ فائز القصْر » فى كتابِه « تاريخُ النباتِ عندَ العَرب » ، و « محمودُ الحاجُ قاسِمُ محمد » فى كتابِه « الموجَزُ لما أضافه العرب فى الطبِّ والعُلُوم » ، و « عبدُ الحليم منتصِر » فى كتابِه « تاريخُ العلم ودوْرُ العلماءِ فى تقدّمه » ، و « بُرُوكْلمان » ، و« فرنيه » و « لِكْلرك » فى « دائرةِ المعارف الإسلامية » ، التى أعدّها ونشرَها الفرنسيون .

●

ولقد ظلّت « تذكرةُ داوُدَ » المرجعَ فى التداوِى من الأمرَاض عدداً من القرون ، فى مدارِسَ ومعاهدَ وكلياتِ الطبّ فى أوربا والعالمِ الإسلامى . وهو مرجعٌ جعَل كلَّ ما قبله من مراجِعَ يتوارَى فى الظِّلّ ، لدَى الأطباءِ والعطّارِين .

ففِى « التذكرة » صَبَّ « داوُدُ » كلّ معارِف السابقِين فى التّداوِى ، وبنظامٍ مُحْكَمٍ جديد ، جمعَ فيه بينَ معارِف العلوم الشتى ، الوثيقةِ الصلة ، بالطلبِ والصيدلةِ ، وسخَّرها لغرضٍ واحدٍ ، هو التداوِى والعلاج بأدويةٍ مستخلصةٍ من النباتاتٍ ، وأجزاءِ الحيواناتِ ، والمعادِن ، كان قد تصدّى لها قبله بالذّكر ،

والشّرح ، والاخْتِبَار ، أطباءٌ وعلماءٌ عِظَام ، من اليونانِيين ، والفُرس ، والهنود ، والمصريين ، والعَرَب ، والمستعْرِبين بالإسلام .

●

وفى عصرنا الحديث ، يشيع العلاَج بالأدويةِ الكيماوية ، مع مُسْتخلَصاتٍ طبيعيةٍ طبيةٍ من النباتاتِ ، والمعادنِ ، والحيواناتِ .

وفى العقودِ الأخيرة ، من القرنِ العشرين ، تعود ؛ إلى مَسْرح العِلَاجِ الطِبّى ، الأدويةُ الطبيةُ الطبيعيّة ، لتنازِع الأدوية الكيماوية عرشَها . وتُباعُ هذه الأدْوِيةُ الآنَ فى عديدٍ من صيدلياتِ أوربا ، طَازَجةً ومجَفَّفة ، ويُقْبِلُ عليهَا الناسُ فى صَيدليّاتِ عربيةٍ ، وعندَ العطارينَ ، تفادياً للآثارِ الجانبيّة ، للأدويةِ الكيماويةِ ، وهى عودَةٌ سيحتَلُ فيها « داودُ بنُ عمرَ الأنطاكى » وكتابُه « التذكرة » مركزَ الصدارَة ، التى كانتْ لهُما ، فى القُرونِ الخالِيَة .

رقم الايداع

١٩٩٣ / ٥٠٩٠

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

الأنطاكى

آخر الصيادلة العرب العظام ، المعالجين بالأدوية الطبية الطبيعية . عاش فى القرن السادس عشر الميلادى ، وولد كفيف البصر على ضفاف نهر العاصى ، وأجاد عدة لغات وجاب أنحاء تركيا والشام ومصر طلباً للمعرفة . واستقر فى مصر وعمل بها رئيساً للصيادلة والبيمارستان وترك وراءه كتباً فى الطب والدواء أشهرها كتابه «تذكرة داود» فى ثلاثة أجزاء ، جمع فيه أكثر من ثلاثة آلاف نبات . إنها قصة تثير الفخار . يقرؤها الصغار والكبار .

صدر من هذه السلسلة :

١ ـ ابن النفيس	١١ ـ الدميرى
٢ ـ ابن الهيثم	١٢ ـ ابن رشد
٣ ـ البيرونى	١٣ ـ ابن ماجد
٤ ـ جابر بن حيان	١٤ ـ القزوينى
٥ ـ ابن البيطار	١٥ ـ ابن يونس
٦ ـ ابن بطوطة	١٦ ـ الخازن
٧ ـ ابن سينا	١٧ ـ الجاحظ
٨ ـ الفارابى	١٨ ـ ابن خلدون
٩ ـ الخوارزمى	١٩ ـ الزهراوى
١٠ ـ الإدريسى	٢٠ ـ الأنطاكى

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة

مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر